ROSA
LUXEMBURG
STIFTUNG
مكتب شمال افريقيا

«الضرورة وغنيمة الحرب»

عن «الإيديولوجيا المغاربية» وفي سبيلها

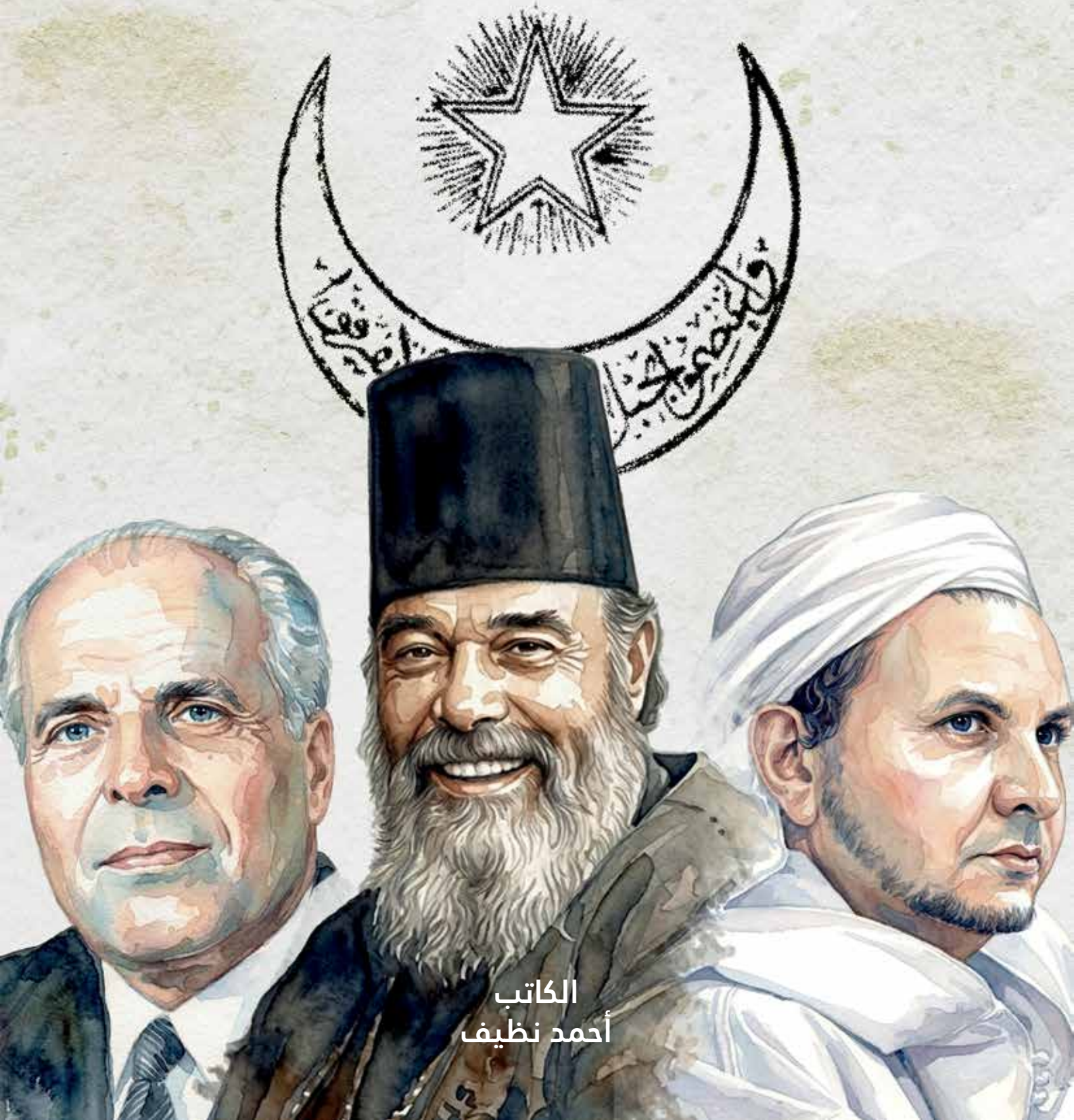

الكاتب
أحمد نظيف

الكاتب:
أحمد نظيف
كاتب صحفي تونسي وباحث مهتم بالعلوم الاجتماعية. يعمل مترجماً في مجلة اليونيسكو بباريس، وأصدر أربعة كتب عن الحركة الإسلامية في تونس والوجود الفلسطيني.

المحررة:
حبيبة علية
مديرة برامج بمؤسسة روزا لكسمبورغ، مهتمة بالحركة النسوية والحركات الاجتماعية واليسارية. تدور اهتماماتها حاليا على الهجرة والتغيرات الاجتماعية وتشرف على انتاج الورقات البحثية في ليبيا والسودان وتونس.

التصميم والغرافيك : روتس برود

نشر هذا العمل بدعم من مؤسسة روزا لوكسمبورغ
مكتب شمال إفريقيا و إن محتوى هذه المطبوعة لا يعبر بالضرورة عن موقف المؤسسة

ROSA LUXEMBURG STIFTUNG
مكتب شمال افريقيا

قياساً للصخب الذي كان جاريًا مطلعَ القرن العشرين وحتى عقوده الأخيرة لحظة تأسيس الإتحاد، من مازال اليوم متحمساً لوحدة المغرب الكبير من بين نُخبه؟ تحتاج الإجابة إلى مسح واسع ودقيق للمواقف والأدبيات، ولكن المزاج العام يكشف بوضوح أن ذلك الصخب والحماس قد انكسر أمام حمّى الانعزاليات الوطنية المتحاربة وتصدع الدول المركزية في الإقليم. وهو ما يدلل على تفكّكٍ مديدٍ لـ«الإيديولوجيا المغاربية»، التي التي عجزت عن الصمود وربما كانت مؤهلةً أكثر من أي بناء إيديولوجي على إنقاذ «الإقليم» من أزماته الهيكلية الراهنة.

لكن مسار هذا «الإيديولوجية» يكشف في الوقت نفسه عن تفاعل معقد بين الوعي المناهض للاستعمار ومشاريع بناء الدولة والتلاشي التدريجي للروايات الكبرى -التي وعدت في يوم من الأيام بالتماسك التاريخي والتحرر الجماعي-. كانت مجتمعات المغرب مطلعَ القرن الماضي غارقة في قبضة التوسع الإمبريالي الأوروبي المتزايدة، والتي بلغت ذروتها في الحماية الفرنسية والإسبانية للمغرب، وتوطيد الاستعمار الاستيطاني الفرنسي في الجزائر، وإقامة الحماية الفرنسية في تونس وصولاً إلى الاستعمار الإيطالي الدموي في ليبيا، والتوغل الفرنسي في الفضاء الموريتاني. وفي هذا السياق، برزت «الإيديولوجيا المغاربية» مجالاً من الممارسات الخطابية التي تربط بين الإسلام الإصلاحي والنهضة الثقافية العربية والنزوع الوطني الناشئ. حيث سعى الإصلاحيون الأوائل إلى التوفيق بين التجديد الإسلامي والاقتباس الانتقائي للحداثة الأوروبية، بينما صوّر الناشطون الوطنيون المغرب الكبير بشكل متزايد وحدةً تاريخية تتّسم بتجارب مشتركة من الغزو والأسلمة والاستعمار. وشهدت فترة ما بين الحربين تبلْور حركات سياسية، مثل حركة الدستور في تونس وحزب الاستقلال في المغرب والتيارات الوطنية التي ستتلاقى لاحقًا في جبهة التحرير الوطني في الجزائر وامتد ليشمل المقاومة السنوسية في ليبيا والحراك النضالي في موريتانيا.

ورغم بلوغ «الإيديولوجيا المغاربية» ذروتها إبان استقلالها في خمسينات وستينات القرن العشرين. لكن مع تفاقم الأزمات الاقتصادية في سبعينات وثمانينات القرن الماضي، ومع ترسيخ الممارسات الاستبدادية وضيق آفاق التحرّر، ظهرت بشكل جليّ هشاشة التوافق ما بعد الاستعماري وحدود سرديات الوحدة التي تتمحور حول الدولة الوطنية. كما تراجع مفهوم المغرب فكرة إقليمية جامعة نتيجة إغلاق الحدود المستمر، وخاصة بين الجزائر والمغرب، وركود الاتحاد المغاربي وتغييب دور ليبيا وموريتانيا في المتن السياسي، ما جعل من التكامل الإقليمي أقرب إلى الشعار منه إلى الواقع. وفي الخطاب الفكري، أفسحت لغة الأصالة والمصير التاريخي المجال لتحليلات تركز على الحوْكمة والهجرة والأمن والوطنية الضيقة. أما الأجيال الجديدة، التي تشكلت بفعل الاتصال الرقمي والتصورات العابرة للحدود، فغالباً ما تنظر إلى «المغرب الكبير» لا بوصفه أفقا إيديولوجيا بقدر ما تنظر إليه صفة ثقافية أو جغرافية. وهكذا، فإن ما كان يُمثّل في السابق سردية قوية للتكوين الجماعي، بات يُشبه بشكل متزايد موضوعًا للتأريخ. فرغم أن هذه «الإيديولوجيا المغاربية» حاضرة في الاحتفالات والمناهج الدراسية والخطابات الرسمية، ظلّ تأثيرها الفعلي متضائلا إلى حدٍ بعيد، فلم تعد تُشكّل التوقعات السياسية بالطريقة التي كانت عليها خلال حقبة الكفاح ضد الاستعمار وبدايات الاستقلال. وبهذا المعنى، أصبحت كما لو أنها جزءٌ من الماضي، ليس لأن المنطقة قد زالت أو أنها تجاوزت أزمتها الهيكلية، بل لأن الإيمان برسالة تاريخية موحدة قد تشتت تحت ضغوط التماسك الاستبدادي للأنظمة الحاكمة والتحولات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات في المنطقة. وهكذا، يُسلّط صعود وسقوط الأيديولوجية المغاربية الضوء على الانتقال الأوسع من الحداثة الثورية إلى البراغماتية ما بعد الإيديولوجية، حيث تفسح السرديات الكبرى للمصير الوطني والإقليمي المجال لآفاق سياسية أكثر ضيقاً، وغالبًا ما تكون أكثر هشاشة.

وتعريفاً لهذه «الإيديولوجيا المغاربية» يمكن توصيفها تجاوزاً بكونها خطاب هويّاتي مرّكب متجذّر في سياق تاريخيّ يتّسم بالتّأمل الذّاتي، ويسعى إلى تحديد الوحدة السّياسيّة والثّقافيّة والمعرفيّة للمغرب الكبير بوصفه كياناً إقليميًّا وأفقاً للتحرّر الجماعي. وقد برزت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بوصفها ردّ فعل على الهيمنة الاستعمارية، وتبلورت خلال نضالات الاستقلال. ولا يمكن اختزالها إلى مجرد قومية إقليمية، كما أنها ليست فرعاً مشتقًّا من القومية العربية أو الأممية الإسلامية، بل هي توليفة محددة تشكلت بفعل التجارب التاريخية المشتركة لنُخب الإقليم، تدلّ على وساطة ضرورية بين الفئات الثقافية الموروثة ومتطلبات الدولة الحديثة والتنمية والسيادة. وتجد جذورها في الروابط اللغوية العربية والأمازيغية والتقاليد الدينية والبنى الاجتماعية المتشابكة، مع إدراكها في الوقت نفسه للتّصدّعات التي أحدثتها الحدود الاستعمارية والمسارات المتباينة لتكوين الدولة. وهدفها النهائي تأكيد هوية حضارية متميزة دون الانعزال، واستيعاب عناصر الحداثة الأوروبية دون الخضوع للتبعية الثقافية. وتحويل منطقة تتّسم بالتجزئة إلى موضوع واعٍ للتاريخ، قادر على التوفيق بين إرثه المتعدّد والمطالب المعيارية للسيادة والتنمية والكرامة الجماعيّة.

لذلك لا يمكن حصر «الإيديولوجيا المغاربية» في جوهر ثابت أو في حنين إلى الأصول، كما هو الشأن مثلاً للنسخ الأكثر عرقيّة في القومية العربية أو غيرها من الإيديولوجيات القومية. بل هي صيرورة تاريخية مركبة الانقطاعات والاندماج والمقاومات. إذ لم تمْحُ مسارات الأسْلمة والتعريب ما

سبقها من التكوين الثقافيّ، بل أعادت تنظيمها ضمن إطار رمزي جديد. وبالمثل، لم يقتصر الاستعمار على فرض هيمنة سياسية، بل أحدث شرخًا في الوعي التاريخي، مما أجبر المجتمعات المغاربية على إعادة تعريف نفسها على نحو مختلف. لذا، من الضروري أن لا تُفهم هذه الإيديولوجيا على أنها هوية تراثية خالصة، بل بوصفها بناءً تاريخيًّا يتشكل باستمرار بفعل التوتر بين التقاليد والحداثة والتقدم والتخلف والسيادة والتبعية.

دول المغرب الكبير

«المغاربية» بوصفها بناءً تاريخيًّا

يبرز مصطلح «المغرب» كجهةً ويقابله بالضرورة المشرق، وهو مفهوم تشكل تاريخياً تحت تأثيرات التعريب والأسلمة ليشمل الفضاء الممتد من برقة شرقاً إلى ضفاف الأطلسي في نواكشوط غرباً. لكن اللافت أن المصطلح قد برز بقوة كعلامةً سياسية وثقافية لمنطقة شمال إفريقيا الموحدة في سياق التوسع الإمبريالي الأوروبي. قبل عام 1830، تاريخ استعمار الجزائر، كانت المنطقة منظمة حول ملكيات وسلطنات متغيرة وولاءات قبلية، موحدة في المقام الأول بالمذهب المالكي السني واللغة العربية والأمازيغية. ورغم وجود لحظات من الوحدة السياسية، كما في عهد الموحدين والمرابطين، إلا أن المنطقة واجهت تحديات التشرذم أمام الأطماع الإمبريالية.

نجم شمال إفريقيا

فقد كان الطموح الإمبريالي الفرنسي هو جعل شمال إفريقيا امتدادًا لفرنسا، ضمن نهجٍ لإعادة هندسة ثقافية وجغرافية للمنطقة. ومع ذلك لم تكن تجربة الاستعمار أساسا موحدة فيً جميع أنحاء المنطقة. فقد حُكمت الجزائر بوصفها جزءًا من فرنسا نفسها، مع وجود أعداد كبيرة من المستوطنين الأوروبيين، بينما ظلت تونس والمغرب تحت حماية حكّام محلّيين ذوي سلطة اسمية وأطلق عليها لفظ "الحماية" في ما واجهت ليبيا محاولة طمس هويتها تحت الاحتلال الإيطالي. ومع ذلك، فقد شهدت المجتمعات الثلاثة - تونس والمغرب والجزائر- هيمنة فرنسية واضطرابات اجتماعية واقتصادية وإعادة تشكيل ثقافي. إذ أحدثت الهيمنة الاستعمارية صدمة اجتماعية وسياسية عميقة حفّزت ظهور أشكال جديدة من المقاومة تجاوزت حدود المستعمرات الفردية. كانت هذه المقاومة في البداية محلية ومجزأة، وغالباً ما كانت ردود فعلٍ على سياسات استعمارية محددة. ومع ذلك، بدأ المثقفون والشباب بصياغة انتقادات أوسع نطاقاً تتجاوز حدود المحميات أو المستعمرات الفردية، خالقين تصوّرا أكثر تحريراً وتضامناً مشتركين متجاوزين الحدود الاستعمارية ويعيد ربط أطراف المغرب الكبير.

عبد الكريم الخطابي

تجاوزت تعبيرات التضامن المغاربي المبكرة حدود الجغرافيا المحلية، لتتبلور فكرة الكفاح المشترك في حواضر المهجر كباريس وبرلين، حيث التقى الطلاب والناشطون والمثقفون وتبادلوا الأفكار. ولم تكن منظمة «نجم شمال إفريقيا» في باريس سوى واجهة لوعي جماعي بدأ يتشكل بين طلاب وناشطين آمنوا بأن وحدة المصير تسبق استقلال الأقطار. إذ سعت هذه المنظمة إلى تنمية هوية جماعية بين طلاب شمال إفريقيا بالاستناد إلى الوطنية الحداثية والسّمات الثقافية المشتركة. وإلى جانب شبكات الطلاب، لعب مثقفون مهاجرون دورًا في تعزيز الروابط بين الناشطين من الجزائر والمغرب وتونس. ومع نضوج تجارب العمل الوطني في كل بلدٍ، تداخلت فكرة الوحدة المغاربية مع مشاريع التحرر الوطني.

وكانت مقاومة عبد الكريم الخطابي في عشرينات القرن الماضي في الريف ضد القوات الإسبانية، ثم الفرنسية، بالتوازي مع صمود عمر المختار في الجبل الأخضر من أبرز مظاهر الكفاح المسلح ضد الاستعمار. ورغم أنها كانت ثورة محلية، إلا أنها لقِيَت صدى واسعاً في شمال إفريقياوحطمت أسطورة التفوق الاستعماري وألهمت روحاً تحررية شاملة. وبحلول الربع الأول من القرن العشرين، ظهرت الأحزاب الوطنية والنقابات العمالية، واعتمدت على روايات متداخلة لمناهضة الاستعمار

والهوية والمظالم المشتركة ضد الهيمنة الفرنسية.

أنضجت السياسات الاستعمارية المتطابقة والممنهجة في بلدان المغرب «الإيديولوجيا المغاربية»، التي مثلت برنامجاً سياسيًّا وكفاحيًّا لفكرة «المصير المشترك» صاغته وحدة المعاناة من «الظلم المشترك». وعقب الحرب العالمية الثانية تزايدت النظرة إلى المغرب الكبير بوصفه كيانا ثقافيّا وسياسيّا متماسكا، في مقابل المشرق العربي. وقد شكّل هذا التأطير أداةً سرديّة لتوحيد النضالات الاستعمارية المتباينة، مع التركيز على اللغة والدين وتجارب الهيمنة. وفي هذا السياق بدأت النّخب المغاربية باستخدام المصطلح كأكثر من مجرد مفهوم جغرافي، للتعبير عن مجتمع أخلاقي تربطه قيم وتطلعات مشتركة. وربما تشكل تجربة مكتب تحرير المغرب العربي في القارة نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات، التجلي الأبرز لهذه التطلعات المشتركة. واستخدم القادة والمثقفون الوطنيون هذه الصورة لتعزيز التضامن النفسي. وبينما كانت ليبيا أول من كسر القيد بنيل استقلالها عام 1951 لتمثل دافعاً معنوياً لبقية الأقطار، تبعتها تونس والمغرب عام 1956، ثم موريتانيا عام 1960، لم يحصل تحرير الجزائر إلا بعد حرب وحشية استمرت ثماني سنوات (1954-1962) ألحقت جروحاً عميقة. ومع ذلك، عزز النضال الجزائري، بحدته واتساعه، سردية المصير المغاربي المشترك. ولم يكن هذا التأثير المتبادل مجرد تأثير رمزي. فقد حافظت شبكات من النشطاء والمنفيين والمثقفين على اتصالات عابرة للحدود. وامتدت الروح المناهضة للاستعمار إلى الخطط المبكّرة للتعاون ما بعد الاستعماري، متصورةً المغرب الموحد وسيلةً لحماية الاستقلال من الهيمنة الخارجية المستقبلية، وهو هاجس تشكل بفعل التجربة الاستعمارية المريرة.

عقب الاستقلال، دخلت المنطقة مخاض بناء الدولة الوطنية الذي اصطدم بطموحات الوحدة؛ فبينما كانت ليبيا وموريتانيا تخوضان معاركهما لتثبيت شرعيتهما الدولية، جاء تأسيس "اتحاد المغرب العربي" عام 1989 في مراكش كإعلان خماسي متأخر لمحاولة مأسسة الحلم القديم فقد تمّ تصميم الاتحاد على غرار المجموعة الاقتصادية الأوروبية بأهداف طموحة، منها التكامل الاقتصادي والتعاون السياسي والتنسيق الأمني. ورغم ما انطوت عليه من وعود الا ان هذا البناء ولد مشلولاً نتيجة عقود من التباين الإيديولوجي؛، واجهت التجربة صعوبة في تحقيق تعاون فعّال. فقد فشلت بنودها الاقتصادية في ترجمة تجارة إقليمية أو تنسيق سياساتي ملموس. بل على العكس، ظلت العلاقات التجارية والاقتصادية أقوى مع أوروبا والشركاء الخارجيين مقارنةً بالعلاقات بين دول المغرب. وقد واجهت الحكومات الوطنية الناشئة ضغوطاً شديدة لترسيخ السيادة وبناء الشرعية الداخلية وإدارة التحديات الاقتصادية. وغالباً ما كانت أولويات مثل بناء الدولة والاستقرار السياسي تحظى بالأولوية على حساب الوحدة الإقليمية.

علم اتحاد المغرب العربي

إضافة إلى ذلك، انتهجت دول المغرب نماذج سياسية واقتصادية متنوّعة. فقد تبنّت الجزائر سياسات ذات توجّه اشتراكي، بينما مالت المغرب وتونس نحو الغرب علاوة على التحولات الراديكالية في ليبيا (الجماهيرية) التي طرحت مشاريع وحدوية بديلة، والمسار الموريتاني المتذبذب بين المحاور، مع أن أيًّا منهما لم يسلك مساراً متطابقاً. وقد أدت هذه الاختلافات إلى تعقيد مسألة الوحدة. فبدلاً من أن يكون الاتحاد مظلة للجميع، تحولت الهوية الوطنية في كل دولة إلى خندق للتنافس، حيث تم تقديم "السيادة الضيقة" على "المصلحة الإقليمية".. فقد ركزت الدول المستقلة حديثاً على سرديات تعطي الأولوية لحدود إقليمية وثقافية محددة، وغالباً ما قلّلت من شأن القواسم المشتركة المغاربية العابرة للحدود لصالح هويات الدول الوطنية. وقد دفع ذلك إلى تراجع فكرة «المغاربية» في الممارسة العملية.

فمنذ ستينات القرن الماضي، أدت الخلافات السياسية والنزاعات الحدودية إلى تقويض مبادرات الوحدة بشكل متزايد. وكان الصراع الأكثر استمراراً وضرراً هو قضية الصحراء الغربية، حيث أدت مطالب المغرب ودعم الجزائر لجبهة البوليساريو إلى تصعيد التوترات الديبلوماسية. وأدى هذا النزاع إلى إغلاق الحدود بين الجزائر والمغرب عام 1994، مما جمّد التعاون الإقليمي فعلياً. وتحوّل الاتحاد إلى هيكل "ورقي" يعكس فشل الأنظمة في استيعاب مفهوم المغرب الكبير ككتلة خماسية متكاملة، لا مجرد محور ثنائي متصارع.»

في تجاوز «اختراع المغرب»

أدى تراجع «الإيديولوجيا المغاربية» إلى تصاعد النزعة الانعزالية في بلاد المغرب، التي باتت تتغذى على الصراعات الجيو-سياسية بين دول الإقليم. وتحاول توظيف نظريات نقدية حول الجذور التاريخية لتشكل مفهوم المغرب الكبير في سبيل ترسيخ هذه الانعزالية الصراعية. وأبرز النظريات التي يتمّ توظيفها اليوم بطريقة مشوّهة هي نظرية «اختراع المغرب»، التي كثيراً ما يُساء فهمها أو تُحرّف في سبيل إقناع الجمهور بأن هذا المغرب الموحد ليس إلا أسطورة رومانسية. في كتابه «اختراع المغرب: بين إفريقيا والشرق الأوسط» (مطبعة جامعة كامبريدج، 2021)، يفكك عبد المجيد حنوم، أستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة كانساس، العمليات التي تم بموجبها بناء منطقة جغرافية وسياسية وثقافية تُعرف اليوم باسم «المغرب الكبير». مؤكداً أن المغرب كيان جيو-سياسي وجغرافي-ثقافي وجغرافي-استراتيجي تم «اختراعه» وإعادة تشكيله بالكامل. وهذا الاختراع تضمن إعادة تشكيل للأراضي وإعادة ترتيب للتاريخ وإعادة تصنيف للسكان وإعادة هيكلة لأنماط حياتهم وتفكيرهم. كما يدرس تاريخ هذا الاسم والمفهوم. مركزاً على أن الاختراع ليس مجرد تلفيق، بل هو «إعادة تشكيل لما هو قديم»، وهو عملية خلق من أنظمة معانيَ كانت موجودة مسبقاً. وقد تمّ بناء المفهوم من خلال إنتاج منهجي للنصوص والخرائط والجغرافيا والتاريخ والآثار واللغويات والإثنوغرافيا والأدب، التي منحت هذا المفهوم صفة العلم والسلطة الخطابية.

يُعرّف حنوم «الحداثة الاستعمارية»، بأنها اللحظة التاريخية التي تداخلت فيها خصائص الحداثة مع الاستعمار، وهي مشروع أوروبي مدفوع بالإيمان بالتقدم والتنوع البشري والتفاوت البيولوجي والفكري والأخلاقي، ومدعومًا بنظرية العرق. وتميزت هذه الحداثة بدمج المعرفة والقوة والعنف ليس فقط للتدمير والإلغاء، ولكن أيضًا للتحويل والخلق. وقد استعاد المؤلفون والإيديولوجيون الاستعماريون التسميات الرومانية واليونانية القديمة للمغرب لربط روما بفرنسا، والماضي القديم بالعصر الحديث. ويُعدّ التمثيل الخرائطي وسيلة قوية للتصوّر المكاني وأداة لبتر الجسد المغاربي. وقد ظهرت الخرائط المتعلقة بالمنطقة في العصر الاستعماري ناتجًا لتقنيات القوة الحديثة التي خلقت محاكاة للدقة اللازمة لإنشاء الكيان الذي تمثله منطقة المغرب. فقبل الهيمنة الفرنسية، كانت الخرائط الأوروبية تحدد المنطقة بـ«البربرية» مقسمة إلى أربع وحدات سياسية (المغرب، الجزائر، تونس، طرابلس)، مع تمييز مصر كتلةً منفصلة. وكان هذا التقسيم مبنيًّا على معاييرَ سياسيةٍ وديناميكيات القوة الملكية والدينية. لكن خلال مرحلة الغزو، اعتمد الخطاب الاستعماري على الترجمة وإعادة التفسير للنصوص العربية الكلاسيكية، مثل ترجمة كتاب أبو عبيد البكري «المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمَغرب» تحت عنوان «وصف إفريقيا الشمالية». وأدت الترجمة إلى إدخال مفاهيم جغرافية وعرقية جديدة، مثل مفهوم «البحر الأبيض المتوسط» و«بلاد الزنوج»، حيث كان الأخير مفهوماً عنصريًّا غائباً في النص الأصلي، الذي استخدم «بلاد السودان». وأصبح فصل المنطقة عن إفريقيا السوداء يتمّ عبر تعيين حدود جغرافية وعرقية هي الصحراء الكبرى. ففي الخرائط الاستعمارية المبكرة، مثلت الصحراء حاجزاً طبيعيًّا وعرقيًّا. كما تمّ العمل على فصل المنطقة عن الشرق، حيث وجدت فرنسا في ليبيا مجرد «فاصل صحراوي» يؤدي من المشرق إلى المغرب، وبالتالي يجب استبعادها من التكوين الجيو-سياسي الفرنسي الاستعماري. فقد كان هدف الخطاب التاريخي الاستعماري -حسب نظرية عبد المجيد حنوم- هو إثبات أن «إفريقيا الشمالية» كانت امتداداً لروما، وأن الحاضر الفرنسي هو امتداد للماضي الروماني. وقد قام الجغرافي والمستشرق الفرنسي، إميل فيليكس غوتييه بترسيخ اسم «المغرب الكبير» بعد أن

استبعد ليبيا (بوصفها ممرًّا للمشرق) وإفريقيا السوداء (بوصفها أرضًا للزنوج). مجادلاً أن المنطقة «بلد بلا اسم». ورغم أن غوتييه لم يكن يعرف العربية أو البربرية، فقد استخدم سلطته الاستعمارية لفرض هذه التصورات حقائقَ. وفي النهاية يخلص حنوم إلى أن المغرب ليس مجردِ كيان جغرافي، بل هو «مجال خطابي»، تشكل من خلال القوة الاستعمارية، وأصبح حقيقة راسخةً، حتى بين أولئك الذين قاوموا الاستعمار، استمرت فئاته وأنماط تفكيره في تشكيل المعرفة الحديثة بالمنطقة حتى يومنا هذا.

واللافت أن عبد الرحمن بن خَلدون قد لعب دوراً محوريًّا في صياغة المتخيل الاستعماري حول منطقة المغرب، وليس بنصه الأصلي وحسب «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، ولكن عبر ترجمته الفرنسية تحت عنوان «تاريخ البربر»، القاعدة المعرفية والأساس الذي بنى عليه المستعمر الفرنسي تصوره للمنطقة وسكانها وتاريخها. ولم يكن هذا الدور نابعاً من النص الأصلي لابن خلدون فحسب، بل من خلال عملية تحويل أيديولوجي وتقني أجراها المترجمون والمستشرقون، وفي مقدمتهم دي سلان، الذي قام بِـ«فرنسة» المفاهيم الخَلدونية لتلائم الأجندة الاستعمارية. فقد حوّل الخطاب الاستعماري مفهوم «الجيل» عند ابن خَلدون، الذي كان يعني الفئة الزمنية، إلى مفهوم «العرق»، مما أدى إلى اختراع ثنائية عرقية متنافرة بين «العرب والبربر» وتصويرها صراعا أزليًّا، وهو ما منح فرنسا ذريعة للتدخل في إعادة هندسة التشكيلات الاجتماعية في المنطقة. كما تمّ تحويل مصطلح «الفتح» في النص الخلدوني إلى «سيطرة عربية»، مما صوّر الوجود العربي احتلالا أجنبيّا دمّر الحضارة اللاتينية السابقة، وصُوّر الاستعمار الأوروبي كـ "عودة رومانية مجيدة".. إضافة إلى ذلك، استلهم الضباط والباحثون الاستعماريون، مثل روبر مونتاني، نظريات ابن خَلدون حول «العصبية» والقبيلة لتطوير «علم اجتماع القبائل» وفهم آليات السلطة والمقاومة، هذا الاستغلال المعرفي لم يهدف لفهم المنطقة، ولكن لوضع سياسات «فرّق تسدْ» وتصنيف المناطق إلى «بلاد مخزن» و«بلاد سيبة» على يد الإدارة الاستعمارية.

اللغة والسلطة في شمال إفريقيا

واستُغلّ تركيز ابن خَلدون على دورات الصراع القبلي وسقوط الدول للترويج لفكرة «تاريخ الفراغ»، مدّعين أن المنطقة عجزت تاريخيًّا عن بناء أمة مستقلة بسبب صراع البداوة والحضر. وحتى عندما حاول المثقفون المحليون والوطنيون الرد على المزاعم الاستعمارية، وجدوا أنفسهم مرغمين إلى العودة إلى نفس المرجعية الخلدونية التي تم استلابها، مما أبقى فكرهم حبيساً في ما يمكن تسميته بِـ«الخلدونية الاستعمارية» التي أعادت إنتاج المنطق الاستعماري في قوالب وطنية. ويعتقد عبد المجيد حنوم أن النهج الاستعماري في الهيمنة قد حوّل عبد الرحمان بن خلدون من مؤرخ وسوسيولوجي ينتمي إلى العصور الوسطى إلى «منظّر استعماري» صاغ الحدود الثقافية والعرقية للمغرب الحديث وأضفى شرعية معرفية على التوسع الإمبريالي الفرنسي.

أما الجانب الثاني والأهمّ في التشكيل الاستعماري للمغرب الكبير فيتمثل تأثير اللغة الفرنسية بشكلٍ جذري وعميق على تعريف الهوية المغاربية، لاسيما في تونس والمغرب والجزائر وموريتانيا نسبياً، إذ لم تقتصر هذه اللغة على كونها وسيلة للتواصل، بل تحولت إلى أداة معرفية وإبستيمولوجية أعاد الاستعمار من خلالها صياغة المنطقة وفصلها عن سياقاتها التاريخية والجغرافية السابقة. فالمغرب الكبير، كما نعرفه اليوم، ظهر في المخيال الاستعماري كتلةً جغرافية متميزة تُعرف بكونها «منطقة نفوذ فرنكفونية»، مما أدى إلى ما يشبه «الطلاق» الثقافي والسياسي بين المغرب والمشرق العربي؛ حيث أصبحت المنطقة تُرى عبر العدسات الأكاديمية الفرنسية كيانا مرتبطا بفرنسا أكثر من ارتباطه بامتداداته الإفريقية أو العربية. وقد فرض الخطاب الاستعماري تراتبية لغوية صارمة، صوّرت اللغة الفرنسية لغةً للحداثة والعلم والتقدم، بينما وُصفت اللغة العربية الفصحى بأنها «لغة ميتة» أو «عقيمة» تشبه اللاتينية، وتم اختزال اللغات المحلية الأخرى كالأمازيغية والدارجة في مرتبة «اللهجات»، التي لا تصلح لبناء هوية حديثة. ولم يختفِ هذا التقسيم مع رحيل الاستعمار، بل استمر عبر «النخبة الفرنكفونية» التي ورثت مؤسسات الدولة في الجزائر وتونس والمغرب وأصبحت اللغة الفرنسية بالنسبة إليها «لغة السلطة» والتمييز الطبقي والترقي الاجتماعي، مما خلق شرخاً داخل الهوية الوطنية بين هذه النخبة وبين الجماهير «المعربة»، وهو ما يعزز الهيمنة الرمزية لفرنسا حتى في غيابها العسكري. وبناءً على ذلك، فإن الاعتماد المستمر على الفرنسية في الحقل المعرفي يحرم المنطقة من «السيادة المعرفية»، ويجعل التفكير في الذات المغاربية محصوراً دائماً ضمن الأطر التي وضعها المستعمر، مما يحول المغرب الكبير من واقع اجتماعي متنوع إلى كيان فرانكفوني مُتخيّل يعيد إنتاج تبعيته في كل مرة يحاول فيها تعريف نفسه من خلال أدوات لغوية أجنبية.

ورغم أن أطروحة «الاختراع الاستعماري» تقدم نقدًا قويًّا لإنتاج المعرفة الإمبريالية، إلا أنها في نهاية المطاف تظل عاجزة عن تفسير المسار التاريخي للهوية في شمال إفريقيا إذا لم تُقرأ بعيون مغاربية شاملة. فهي تُخاطر بسلب مجتمعات المغرب الكبير من صياغة شكل مختلف لوجودها المشترك، وتقع في فخّ النزعة الجوهرية بالبحث عن هوية «خالصة» ما قبل الاستعمار. إن نزع الشرعية عن الهوية المغاربية لمجرد تأثرها بالتجربة الاستعمارية هو تجاهل للطبيعة الأساسية لتكوين الهوية الحديثة. والحقيقة أن عبد المجيد حنوم نفسه يشير إلى ذلك من خلال التأكيد على القول بأن «المغرب اختراع استعماري» لا يعني نفي وجود واقع اجتماعي أو ثقافي أو تاريخي مشترك لسكان المنطقة، بل يشير إلى عملية إعادة تشكيل وتأطير هذه الهوية ضمن قوالب جغرافية وسياسية حديثة لم تكن موجودة بهذا الشكل من قبل. فالاختراع ليس خلقاً من عدم، بل هو إعادة صياغة لأنظمة معانٍ كانت موجودة أصلاً. فالمنطقة قبل الاستعمار كانت مليئة بالكيانات والهويات المتداخلة، والاستعمار قام بجمع هذه الأجزاء وتفكيك روابطها القديمة ليعيد تركيبها في وحدة جغرافية سياسية واحدة لتسهيل السيطرة عليها. كما أن المفهوم لم يظل حبيس المخططات الفرنسية، بل تبنته النُّخب الوطنية والدينية وحوّلته من أداة استعمارية إلى مشروع هوية تحرري، لمواجهة السردية الاستعمارية، مما جعل هذه الهوية «حقيقية» في وجدان الشعوب من خلال التعليم والنضال السياسي.

ويرتكز النقد القائل بأن المغرب «مُختلق» على افتراض واهم أن الهويات «الأصيلة» هي تلك التي تنشأ بشكل طبيعي، دون أن تتأثر بقوى خارجية أو بمعزل عنها. والحقيقة إن هذه «الأصلانية» هي مجرد أسطورة قومية، ظلت دائم الأساس الحجاجي لأي فاشية. كما يجادل "بنديكت أندرسون"

في كتابه الشهير «الجماعات المتخيلة»، فإن جميع الأمم والهويات الإقليمية متخيّلة على نحو مَّا. فهي بنى اجتماعية تُخلق من خلال السّرد والتعليم والصّدمات المشتركة. لذلك لا ينفي كون مفهوم «المغرب» قد صاغ جغرافيون فرنسيون وجوده. فقد كانت التجربة الاستعمارية بمثابة بوتقة صاغت حداثة مغاربية مشتركة. فصدمة الاستعمار حقيقية، واستنزاف الموارد حقيقيًّا، وتجربة السّجن والمنفى المشتركة حقيقيّة. وعندما تحدث فرحات عباس أو علال الفاسي عن المغرب، فلم يكونا يردّدان السّرد الاستعماري بشكل أعمى، بل يُعيدان صياغته. لقد استغلاّ الفضاء الاستعماري وملآهُ بمضمون مناهض للاستعمار، وحوّلا فضاء الهيمنة إلى مساحة للمقاومة. وتعاملا معه بوصفه «غنيمة حرب» . لذا، ينبغي النّظر إلى «اختراع» المغرب من منظور «إعادة التّوظيف». فكما فُرض مصطلح «أسوَد» من قِبل العنصريين الاستعماريين، ثم أعاد دعاة الوحدة الإفريقية توظيفه رمزا للفخر والتضامن، كذلك أعادت النخب الوطنية في شمال إفريقيا توظيف «المغرب الكبير». وأصبح وعاءً لِلُغة مشتركة ودين مشترك ومظالم مشتركة. والسؤال الجوهري اليوم ليس في "من اخترع المفهوم"، بل في مدى قدرته على أن يظل آلية تضامن حية تعبر عن وجدان الإنسان المغاربي في أقطاره الخمسة.

بمنحنا النهج المقارن مع التجربة الأوروبية أفقاً لنقد توظيف أطروحة «الاختراع الاستعماري»، لا في مدى صحّتها، ولكن في مستوى توظيفها كذريعة لتعزيز الخطاب الانعزالي. فمفهوم «الوحدة الأوروبية» هو، دون شكّ، اختراع معاصر لا يقل اصطناعاً عن مفهوم «المغرب الكبر». تاريخيًّا، كان مصطلح «أوروبا» تعبيراً جغرافيًّا غامضاً، وغالباً ما يُرادف العالم المسيحي، ولكنه ظل ممزّقاً بفعل قرون من الحروب الداخلية. أما المفهوم الحديث لـ«الوحدة الأوروبية» فقد تم تطويره وتخطيطه بشكل مكثف من قبل النُّخب الأوروبية في أعقاب صدمة الحرب العالمية الثانية الكارثية. ومثل النُّخب المغاربية، كان مؤسّسو المشروع الأوروبي يتفاعلون مع صدمة حطّمت الهويات السابقة. إضافة إلى ذلك، كان السعي نحو الوحدة الأوروبية، جزئيًّا، رد فعل على «الآخر» الخارجي (الاتحاد السوفياتي) وسياقات الحرب الباردة. وقد «تمّ اختراع» الهوية الأوروبية لمنع الحرب وتعزيز الانتعاش الاقتصادي. رغم الاختلافات الوطنية العميقة بين فرنسا وألمانيا، وهي اختلافات أدّت إلى ثلاث حروب في غضون سبعين عاماً. ورغم أصولها المصطنعة، أصبحت الهويّة الأوروبية واقعاً مؤثراً. فقد خلقت مؤسسات تُنظّم الحياة اليومية لملايين الأشخاص، وخلقت شعوراً بالمواطنة المشتركة. ولم يكمن نجاحها في طمس الهوية الفرنسية أو الألمانية أو بقية الهويات الوطنية، بل في دمج هوية إقليمية مع الهويات الوطنية. وهكذا، فإن أطروحة «الاختراع الاستعماري» عزّزت في الواقع الحجة المؤيدة للوحدة. فهي تُبرز أن المغرب مشروع سياسي، وليس مصيراً محتوماً. ولأنه ابتكار، فإنه قابل لإعادة الابتكار. ويمكن إعادة تصوّره وَفْقَ احتياجات وسياقات وتطلعات شعوبه اليوم وليس في الماضي.

«الإيديولوجيا المغاربية» بوصفه ضرورةً

ربما لا يحتاج إثبات فشل الدولة الوطنية في حلّ معضلات التّنمية والتّحرّر في المغرب الكبير جهداً كبيراً، بسبب تراكم الأزمات في المنطقة، وحالة التّيه الوجودي التي يعيشها سكانها الحالمون بعبور البحر المتوسط نحو الضفّة الشّمالية بوصفه حلاًّ أخيرًا لذلك التيه. نشأت «الإيديولوجيا المغاربية» في القرن العشرين كرد فعل على الهيمنة الاستعمارية، ويبدو أن أهميتها المعاصرة ستكمن في إنقاذ المغرب من أزمته الهيكلية وحفظ كرامة سكانه. فالمغرب يواجه اليومَ مجموعة

مختلفة من الضّغوط، بدايةً من تغير المناخ والاختلالات الديموغرافية والتفكك الاقتصادي وانعدام الأمن الغذائي وتصاعد التنافس الجيو-سياسي بين الاتحاد الأوروبي والصين والولايات المتحدة وتركيا ودول الخليج. وهذه التحديات تعيد طرح مسألة التكامل الإقليمي، بوصفها استجابة استراتيجية للهشاشة النظامية السائدة.

يُنظر إلى المغرب الكبير حاليًّا على أنه ساحة صراع بين القوى. وتساهم إيديولوجية مغاربية مُجددة في جعل هذه الديناميكية تحوّل المنطقةَ من مجرد هدف جيو-سياسي إلى فاعل جيو-سياسي. وبدلاً من الانحياز التام إلى قوة عظمى واحدة، تعزز إيديولوجية مغاربية موحدة الاستقلال الاستراتيجي. فمن خلال إظهار جبهة موحدة، تستطيع دول المغرب ممارسة الديبلوماسية التبادلية، مستفيدةً من موقعها الجغرافي جسرًا بين إفريقيا وأوروبا، لتأمين شروط أفضل مع جميع الشركاء. كما تقوم أي إيديولوجية مغاربية راهنة بالضرورة على أن أمن أي دولة مرهون باستقرار جيرانها. وهذا النهج ضروري لحل مأزق الصحراء. ويمكن لنهج وظيفي أن يكسر حالة الجمود الراهنة، يتمثل في التّعاون في قضايا أقلّ أهمية كالتجارة والصحة لبناء الثقة قبل الخوض في نزاعات السيادة ذات الأهمية القصوى. كما ينبغي لأي فكر مغاربي أن يؤكد على الهوية المزدوجة للمنطقة بوصفها شمال إفريقية وإفريقية في آن. وهذا يُمكّن المنطقة من أن تستعيد دورها الاقتصادي في إفريقيا من القوى الاستعمارية السّابقة.

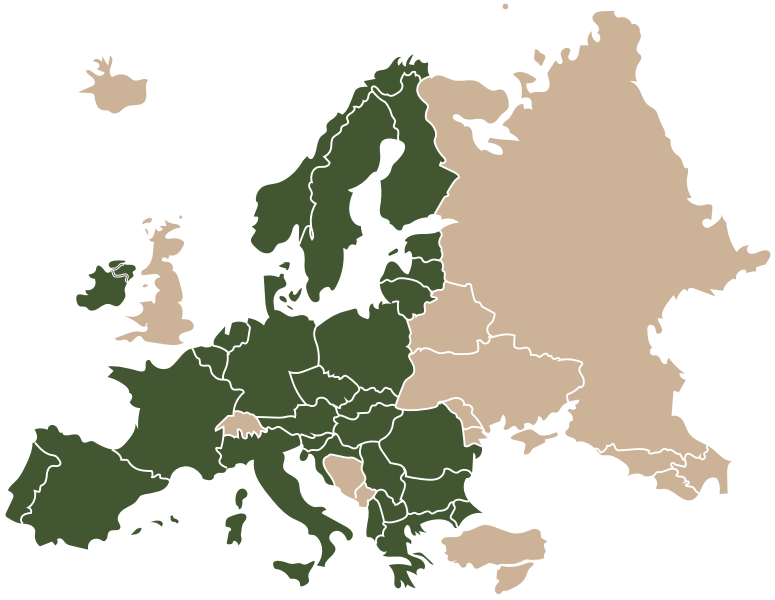

الوحدة الأوروبية: مشروع سياسي

أما داخليًّا، تمتلك المنطقة مواردَ هائلة ومتكاملة. فالجزائر وليبيا تمتلكان موارد هيدرو-كربونية، والمغرب يمتلك إمكانات في مجال الفسفاط والطاقة الشمسية، وتونس وموريتانيا تمتلكان قدرات في مجال الطاقة المتجددة. لذلك لابدّ أن تُعطي أي إيديولوجية مغاربية الأولوية للسيادة الإقليمية على الطاقة. ومن شأن شبكة مترابطة أن تُمكّن المنطقة من تلبية احتياجاتها الصناعية قبل تصدير الفائض إلى أوروبا، ما يُسهم في الارتقاء بسلسلة القيمة من مُصدّري المواد الخام إلى الاقتصادات الصناعية. كما يُعدّ تغير المناخ أكبر تهديد يواجه المغرب. ولا يمكن حلّ مشكلة ندرة

المياه من خلال احتكار الدول للموارد خلف حدودها المغلقة. لذلك من شأن فكرة «المصير المشترك» -بوصفها أساسا وجوديا للإيديولوجيا المغاربية- أن تجد حلاً لأزمة المياه الهيكلية. فالاستثمار المشترك في البنية التّحتية لتحلية المياه (التي تعمل بالطاقة الشمسية المشتركة) وإدارة طبقات المياه الجوفية عبر الحدود أمران أساسيان لاستمرار وجود المنقطة برمّتها. وقد تكون الإيديولوجية المغاربية حلاً للتّشرذم الحالي في المنطقة، لكن يجب تجريدها في المقابل من خطابها الطوباوي وتطبيقها بشكل عملي. وذلك من خلال النظر إلى الإقليم لا بوصفه خمسَ دول ضعيفة منفصلة، بل بوصفه نظاما بيئيًّا واحدا يواجه انهياراً مناخيًّا وتبعية اقتصادية، توفر له هذه الإيديولوجية الغطاء السياسي اللازم للتوصل إلى حلول جذرية.

خاتمة

يمثل مسار «الإيديولوجيا المغاربية» في القرن العشرين دراسة حالة مؤثرة في جدلية الاستعمار والدولة الوطنية. فقد نشأت كرد فعل مباشر على صدمة الاستعمار الفرنسي، موفرةً إيديولوجية موحدة، كان لها دور محوري في تحرير دول المنطقة. وقد خلقت المعاناة والنضال شعوراً قويًّا، وإن كان قصير الأمد، بالتضامن بين شعوب المنطقة ونُخبها. إلا أن هشاشة هذا البناء انكشفت بمجرد تحقيق الاستقلال. فقد أدى تباين الأنظمة السياسية وتوطيد الهويات الوطنية الضيقة وأولوية سيادة الدولة إلى تفتيت المثل الأعلى للوحدة المغاربية. وأدى التراجع نحو النزعة الوطنية إلى ركود في التكامل الإقليمي لا يزال قائماً حتى اليوم.

وقد تجلى تصاعد الانعزالية الوطنية في توظيف النقد ما بعد الاستعماري، الذي ينظر إلى المغرب الكبير بوصفه «اختراعًا» استعماريًّا. ورغم أن أطروحة الاختراع قد تمّ التلاعب بها لتحقيق أهدافٍ سياسية. فجميع الهويات السياسية الحديثة هي هويات مُصطنعة. وقد اكتسب اختراع المغرب مصداقيّته من خلال التجارب المشتركة لشعوبه على مدى قرن من النّضال. وتُبرز المقارنات مع التكامل الأوروبي نقطةً بالغة الأهمية، فالهويات التي كانت تُصاغ في الماضي يُمكن أن تُصبح أدواتٍ فعّالة للتضامن والهدف الجماعي. وبالتالي، فإن السؤال السياسي ليس ما إذا كانت الهوية المغاربية مخترعة، بل ما إذا كان من الممكن حشدها مؤسّسيًّا للاستجابة للتحديات المشتركة الراهنة. والحقيقة أن المغرب الكبير، لا يزال بروابطه الثقافية العميقة وتجاربه التاريخية المشتركة، يحتفظ بإمكانية إعادة تشكيل الوحدة بطرقٍ ذات مغزى لشعبه، تتجاوز إرث الاستعمار والمصالح الوطنية الضيقة. فبالنسبة إلى شعوب المغرب، التي تواجه تحديات الركود الاقتصادي وتغير المناخ والتهديدات الأمنية، يمثل إعادة إنتاج «الإيديولوجيا المغاربية» سبيلاً للمُضيّ قُدماً. لكن ذلك يتطلب التوجه نحو اندماج طوعي يستند إلى الاحتياجات العملية للحاضر والمستقبل. ومن خلال إضفاء الطابع المؤسسي على التعاون في مجالات التكيف مع تغير المناخ والتكامل الاقتصادي والتنسيق الأمني وحرية تنقل الأفراد، تستطيع دول المغرب تحويل التحديات المشتركة إلى فرص للعمل الجماعي.

المصادر

- Anderson, Benedict. Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism. Verso, 1983.
- Abdelmajid Hannoum, The Invention of the Maghreb. Between Africa and the Middle East, University Printing House, Cambridge, juin 2021.
- Laroui, Abdallah. L'histoire du Maghreb : un essai de synthèse. 2 vols, éd. Maspero, Paris, 1970; réed. éd. Maspero, Paris 1982.
- McDougall, James. A History of Algeria. Cambridge University Press, 2017.
- Stora, Benjamin. Histoire de l'Algérie coloniale (1954-1830), Paris, La Découverte, 2004 (1re éd. 1991)
- Zoubir, Yahia H., and Haizam Amirah-Fernández (eds.). North African Politics: Change and Development. Routledge, 2013.
- Willis, Michael J. Politics and Power in the Maghreb: Algeria, Tunisia and Morocco from Independence to the Arab Spring. Oxford University Press, 2014.

ROSA
LUXEMBURG
STIFTUNG
مكتب شمال افريقيا